سورة التحريم

بين يدي السورة:

- سورة التحريم من السور المدنية التي نزلت في مرحلة متأخرة. فقد جاء في بعض روايات أسباب النزول ذكر لأسماء أمهات المؤمنين ولم يبن رسول الله I بهن إلا في مرحلة متأخرة كزينب بنت جحش، وصفية بنت حيي، وجاريته مارية القبطية رضوان الله عليهن جميعاً..
- هذه السورة تحمل معنىً تربوياً كبيراً ألا وهو (تربية البيت المسلم).

والقرآن في أصله كتاب تربية وهداية وتزكية، فالله يقول ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾..

أي أن كلُ ما فيه قوام حياتكم ومعاشكم ومصالحكم ستجدونه في هذا القرآن، سيهديكم له، حتى تفاصيل حياتكم الأسرية وكيف تتصرفون في مشاكلكم وتديرون أسركم.

فإن القرآن سيعطيكم معايير تضبطون بها تصرفاتكم ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. فإن نحن مشينا وفق هذه المعايير القرآنية هُدينا إلى الرشد، وهُدينا إلى التصرف الحكيم وإلى الحياة الطيبة ومن ثمّ سنخرج بأقل قدر ممكن من الخسارة في الحياة الزوجية.

وعلى سبيل المثال لا الحصر...

تأمل آيات الطلاق في سورة البقرة، جاءت بينها آية قد يتعجب القارئ منها ويسأل نفسه ما مناسبتها وما صلتها بآيات الطلاق؟؟ وهي قوله تعالى ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ(٢٣٨)﴾

[البقرة].

والجواب: إن هذه الآية تعطيك الحل والعلاج...

فإذا حصلت لك أي مشكلة أُسرية، زوجية، فما عليك إلا أن توثق صلتك بالله فأنتَ إذا أصلحتَ ما بينك وبين الله أصلح الله ما بينك وبين البشر وإذا اتصلت بالله سكنتْ نفسك وارتاح بالك وكفيت وتولى الله أمرك، وعرفتَ حقيقة الدنيا وأنها طُبعت على كدر، مليئةٌ بالإبتلاءات وخاصة ابتلاءات البشر بعضهم ببعض ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ ﴾..

فليس فيها سرور دائم ولا سعادة دائمة...

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) ﴾

تحكي لنا سورة التحريم عن مشكلة حصلت في البيت النبوي وكيف تم علاج هذه المشكلة. والهدف من ذلك حتى يكون البيت النبوي قدوة وأسوة لجميع المسلمين والله يقول ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب:٢١].

- ما هي المشكلة التي حصلت؟؟

اختلف المفسرون، منهم من قال أنها قصة تحريم مارية القبطية التي أهداها المقوقس ملك مصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتسرّاها وولدت له ابنه إبراهيم، فدخل بها رسول الله في بيت حفصة فوجدته معها، فقالت: لِمَ تدخلها بيتي،؟ ما صنعتَ بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فشقّ عليها ذلك رضي الله عنها وتأثرت.

فأراد رسول الله I أن يطيّب خاطرها ويُرضّيها فحرّم مارية على نفسه وأخبرها أن لا تخبر بهذا أحداً[١].

- والرواية الثانية رواها الإمام البخاري في صحيحه، وهي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي I يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأتُ أنا وحفصة على أيّنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير[٢]. فقال: ولكني أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت، ولا تخبري بذلك أحداً[٣].

فنزلت الآيات وعاتب الله نبيه لأنه حرم على نفسه شيئاً أباحه الله له.

- الوقفة الأولى: عتاب الله لنبيه I.

عاتب الله نبيه في عشر مواضع تقريباً في القرآن، ومن تتبع هذه العتابات وجدها من أرق وألطف العتاب.

- في سورة التوبة قال الله لنبيه معاتباً له حين استأذنه المنافقون في القعود وعدم الخروج معه لغزوة تبوك فأذِن لهم ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ [التوبة:٤٣].

قدّم العفو على العتاب، وهذه صيغة لطيفة جداً في الإنكار، فكأنه يقول ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم.

▣ في سورة الأنفال حين قبِل رسول الله I الفِداء من أسرى بدر ولم يقتلهم فعاتبه ربه ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنفال:٦٧].

وتأمل كيف أن العتاب جاء جملة خبرية بصيغة الغائب، لم يواجهه بالعتاب، لم يكن الخطاب مباشرة ما كان لكَ يا محمد أن تفعل وأن تفعل،، لا وإنما (ما كان لنبي) تكريماً وتلطفاً معه I.

▣ ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) ﴾ [عبس] أيضاً جاءت بصيغة الماضي،، من هو هذ الذي عبس؟؟

---

[١] أسباب النزول القرآني صـ ٣٩٠، ابن جرير الطبري في تفسيره ٢٨/١٠٠
[٢] المغافير: شجر له رائحة كريهة.
[٣] البخاري في الطلاق (٥٢٦٦)

أما هنا في سورة التحريم جاء العتاب بصيغة النداء **(يا أيها النبي)** لتطمين قلبه عليه الصلاة والسلام، أن باقٍ على نبوته وأن هذا العتاب لا يؤثر على مقامه ونبوته، وأيضاً هو عتابٌ افتتُح بنداء النبوة، وخُتِم بالمغفرة، ما ألطفه وما أرقه من عتاب. وكل هذا يدل على مكانته وقدره عليه الصلاة والسلام عند ربه.

- الوقفة الثانية:

تأمل أن الله عز وجل عاتب نبيه لأجل التحريم الذي حرمه على نفسه ولم يعاتبه أنه كان يبتغي مرضاة أزواجه، وهذا فيه إشارة أن الحرص على إرضاء الأزواج كان هدياً نبوياً.

فقد كان عليه الصلاة والسلام من أكرم الناس عشرةً وأكثرهم إحساناً وأحرصهم على تطييب الخواطر وجبرها.

- الوقفة الثالثة:

في قوله ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) ﴾.

تعطينا هذه الآية هدْياً قرآنياً عالياً راقياً جدً ألا وهو عدم ذكر اسم المخطئ، لم يخبرنا القرآن من هي الزوجة التي أسرّ لها رسول الله وأفشت سره وإنما أخبرنا عن الحادثة التي حصلت وهي إفشاء سر رسول الله I. وهذه عادة القرآن أن يركز على القضية نفسها لا على تفاصيلها وجزئياتها.

وفي علم التربية والسلوك يقولون: العقول الصغيرة هي التي تناقش التفاصيل أما العقول الكبيرة فتناقش الأفكار، وكل هذا من العقل ومن الحكمة والرشد.

وكم هي نعمة الله على الإنسان حين يعصمه ربه عن سفاسف الأمور، وعن ما لا يليق، ويرقّيه في دائرة الأدب.

هذا الهدْي القرآني لو ترسّمه الإنسان في نفسه وحرص عليه وبدأ يدرب نفسه عليه فإنه يقف به عالياً في مدارج الأدب والحكمة فهو من درجات الكمال البشري.. نسأل الله من فضله.

- الوقفة الرابعة: لا تفشي سرّ من أسرّ إليك بشيء.

فالمجالس لها حرمتها ولها حقوقها وأماناتها، ومن أمانة المجلس أن لا تحدّث بأسراره.

قال I: " المجالسُ بالأمانة "[١].

ولكن ما هو السر؟؟

السرّ: هو ما يقع خفية بينك وبين جليسك. فهذا لا يجوز لك أن تحدث به سواء قال لك لا تخبر به أحداً أو ظهَر هذا من قرينة تدل أنه لا يريدك أن تخبر به أحداً.

إما قرينة فعلية أو قرينة حالية..

القرينة الفعلية: أن يحدثك وهو في حال تحديثه إياك وكلامه معك تجده يلتفت يخشى أن يكون أحد يسمع كلامه. فمعنى هذا الالتفات أن الكلام سرّ لا يريد أن يعرفه أحد.

يقول I: "إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة"[٢].

القرينة الحالية: أن يكون الأمر الذي أخبرك به من الأمور الخاصة التي يستحي أن يذكرها لأي أحد أو يخشى أن يعرفها أحد، فهذه قرينة أنه سر.

إن من أخطر الأمانات شأناً حفظ أسرار الناس وستر عوراتهم وكتمان أحاديث مجالسهم.

يقول الحسن رحمه الله: إن من الخيانة أن تحدّث بسر أخيك[٣].

- أنس خادم رسول الله I وهو غلام يلعب مع الصبيان مرّ عليهم رسول الله وسلّم عليهم وبعث أنس في حاجة، فتأخر أنس على أمه فلما جاءها قالت: ما حبسك؟ فقال بعثني رسول الله I لحاجة، قالت: وما حاجته؟ قال: إنها سر فقالت: لا تخبرنّ بسر رسول الله أحدا[٤].
- عمر رضي الله عنه لما تأيمت حفصة ومات عنها زوجها عرضها على أبي بكر حتى يتزوجها فسكت ولم يرد عليه فوجَدَ عمر في نفسه، فلما خطبها رسول الله وتزوجها جاء أبو بكر لعمر وقال: لعلك وجَدْت عليّ؟ ولكن النبي I ذكرها وما كنتُ لأفشي سر رسول الله I[٥].

---

[١] صحيح الجامع (٦٦٧٨)
[٢] شرح الشيخ ابن عثيمين في كتاب رياض الصالحين (٥٦٩/٢) – بتصرف-.
[٣] المصدر السابق
[٤] صحيح مسلم (٢٤٨٢)
[٥] البخاري (٤٠٠٥)- بتصرف.

- وقد بوّب البخاري في صحيحه باباً بعنوان (حفظ الأسرار) وفي هذا إشارة لأهمية هذا الخُلق، وأنه جزء من شخصية المؤمن وخلقٌ من أخلاقه، وأن إفشاء الأسرار ليس من أخلاق المؤمنين بل هو صفة من صفات المنافقين كما ورد في الحديث "آية المنافق ثلاث..... وذكر منها إذا اؤتمن خان"[1].

- وقال علي رضي الله عنه: " **لا تكونوا عُجلاً مذاييع بُذراً** "[2] أي لا تكونوا كالمذياع في نقل الأخبار والكلام والأسرار واحفظوا للمجالس حرمتها.

- الوقفة الخامسة: ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾.

تتضمن هذه الآية أدباً كبيراً، وخُلقاً هو خُلق الكرماء والكُمّل والصفوة من الخلق، خُلق أصحاب العقول الراشدة الناضجة.. إنه خُلق التغافل.

فلما أخبر الله نبيه أن زوجته أفشت سره، جاء النبي إليها، وأخبرها لكنه لم يخبرها بكل شيء ولم يدقق في التفاصيل والدقائق.

وكما قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن غِرٌّ كريم والفاجر خِبٌّ لئيم)[3].

المؤمن الذي كَمُل في إيمانه سيغض الطرف، ويكظم ويمرر، ويعذر ويتغافل ولن يقف عند كل شاردة وواردة، ولن يدقق في كل صغيرةٍ وكبيرة.

لا يُقحم نفسه في كل شيء، ولا يدخل في مهاترات وجدل وردود، بل هو يترفع عن كل هذا، لذلك كان التغافل هو تسعة أعشار العقل، بل هو العقل كله.

- وخُلق التغافل والمداراة هو من أساسيات نجاح حياة الإنسان في تعاملاته مع الناس وخاصة في الحياة الزوجية، فنحن بدون تغافل لا نستطيع العيش.

وأصحاب النفوس الكبيرة، النفوس الشريفة، النفوس التي تُعطي أكثر مما تأخذ وتبذل أكثر مما تطلب، وقلبها يتسع للجميع، أكثر ما يميزها هذا الخُلق، وكما قيل " **ما استقصى كريمٌ قط**".

يقول معاوية رضي الله عنه: **لو أن بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها، إن مدّوها خليتها وإن خلّوا مددتها**[4].

---

[1] رواه البخاري في كتاب الإيمان
[2] صحيح الأدب المفرد صـ ٢٥٠
[3] سنن أبي داود (٤٧٩٠)
[4] البداية والنهاية لابن كثير

وقد قال I لأسماء رضي الله عنها: " أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيُوعي الله عليك"[١]، وإن كان الحديث ورد في سياق الصدقة إلا أننا نستفيدُ منه أنه كما تكون للناس يكون الله لك، سيعاملك الله بما تعامل به خلقه...

قف وتأمل هذا المعنى كثيراً لعل الله أن يمنّ عليك بالفهم والبصيرة والتخلق بهذا الخُلق....

اللقاء الثاني

---

[١] البخاري (٢٥٩١)

- الوقفة السادسة: ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾

الصغوْ: هو الميلان والإنحراف والإنحدار للأسفل.

وتأمل أن هذا الصغوْ نازلٌ على القلب وفيه إشارة إلى أنه كما تتنزل العقوبات على الأبدان فإنها تنزل على القلوب، وهي أقسى وأشد وأصعب، ومن المعروف أن القلب مثل المرآة فإذا كانت النفثة البسيطة تُكدر المرآة وتزيل صفاءها، فالقلب أعظم تأثراً من المرآة كلُ ما نتكلم به يؤثر علينا، وكل ما نشاهدهُ يؤثر علينا، وكل ما نسمعه يؤثرعلينا، وربما تصيبُ هذه المسموعات والمنطوقات والمشاهدات القلب في مقتل وربما تصيبهُ بجراح تؤذينا غاية الإيذاء.

لذلك ابن السعدي في منظومته الرائعة الماتعة "منظومة السير إلى الله" وصف السائرين إلى الله بأن أكثر ما يميزهم أنهم يحتاطون لقلوبهم فقال:

عزفوا القلوب عن الشواغل كلها قد فرّغوها
من سوى الرحمنِ
حركاتهُم وهمومُهم وعزومُهم لله لا
للخلقِ والشيطانِ

- **(فقد صغت قلوبكما)** لفظ القلوب هنا أتى بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية، وهذا فيه دليل أن القلب في صغوه وانحداره ليس قلباً واحداً وإنما مجموعة قلوب، كلما انحدر ونزل للأسفل تغير هذا القلب وأصبح قلباً ثانياً، وكلما انحدر درجة ونزل تغيّر وأصبح قلباً آخر ومن ثم بدأت تظهر عليه آثار المرض وآثار الصغو والميلان وآثار هذه العلة التي أصابته[1].

- الوقفة السابعة:

▣ من الفوائد التي تؤخذ من الآية أيضاً أن الفاضلات والصالحات قد يقع منهن الزلل، فالمرأة مهما كانت صالحة تقية وصاحبة علم وعبادة قد يقع منها ما يقع، فالنقص مكتوبٌ والخطأ وارد وكل ابن آدم خطّاء، والنبي I أخبر أن المؤمن خُلِق مُفتَناً توّاباً. لكن المهم أن لا يُخفي الإنسان نفسه وراء أخطائه وأن لا يهرب

---

[1] لطائف قرآنية- الدكتور/ صلاح الخالدي – بتصرف.

منها وأن لا يستمرئ قضية الهروب والشرود وعدم المواجهة، بل المؤمن قوي ومن صور هذه القوة أن يواجه نفسه ويعاتبها ويلومها ويعترف بخطئه وتعثّره، فإن كان على ذلك فهو على خير وعلى سبيل توبة وإصلاح.

▣ الفائدة الثانية أن الآية فيها إشارة إلى قاعدة عظيمة وهي **"عِظَمُ الذنب بِعِظَمِ المقام"**، فالذنوب تتفاوت والذنب يعظم لعِظم المكان ولعِظم الزمان ولعِظم مقام الإنسان.

فمن يعصي الله عز وجل في الأماكن الفاضلة (مكة، المدينة، مِنى، مزدلفة، حدود الحرم، المساجد) جمع على نفسه أمرين: الذنب نفسه وانتهاك حرمة المكان، فالعقوبة ستكون أشد وأعظم لأنه أساء الأدب مع الله عز وجل من جهة ونقص التعظيم من جهة أخرى، فهو لم يعصِ الله إلا لأن التعظيم نقص في قلبه والله ذم واستنكر وتعجب ممن لا يعظمه ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) ﴾ [نوح].

قد يعظم الذنب أيضاً لعِظم الزمان (شهر رمضان، الأشهر الحرم، عشر ذي الحجة، وقت السَحر)، من عصى الله في هذه الأزمنة الفاضلة أيضاً فقد انتهك حرمة الزمان، بالتالي تكون المعصية أشد حرمة،، والسيئة تعظُم.

** هل السيئات تتضاعف مثل الحسنات؟؟

الجواب: لا وإنما السيئة تعظم كيفاً لا كماً. أي تعظم عقوبتها فتصبح شديدة تُشدد وتغلظ على الإنسان أما السيئة تظل سيئة واحدة لا تتضاعف.

نأخذ مثال لنقرب المعنى: الزنا حرامٌ وكبيرة من الكبائر سواء ارتكبه شاب أو إنسان كبير والعقوبة التي عليه إما الجلد أو الرجم، فإن كان متزوجاً فعقوبته الرجم وإن كان غير متزوج الجلد، لكن إن زنا شيخ كبير في السن ليس عنده تلك الدوافع والنوازع التي تغالب الشباب تُشدد عليه العقوبة وتعظم في حقه.

يقول النبي I : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملك كذّاب، وفقير مستكبر"[1].

أي لا تقتصر فقط على الجلد أو الرجم وإنما هناك عقوبة إضافية وهي أن الله لا يكلمه ولا يزكيه ولا ينظر إليه يوم القيامة.

○ **ملك كذاب**: الناس يكذبون لخوفهم أما الملك فما الداعي لأن يكذب؟؟ هو من يخيف الناس ولا يخافهم، لذلك تعظم في حقه العقوبة لو كذب.

---

[1] صحيح الجامع (٣٠٦٩)

○ **عائل مستكبر**: الكِبر كبيرة قلبية مُستقبحة، وقد قال الرسول I: " **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**"[1]، فعندما يأتي شخص فقير معدم ليس لديه ما يأكله ويتعاظم ففي حقه أصبحت العقوبة أعظم.

وكلما كان الإنسان أكثر صلاحاً وأكثر تقوى وأكثر قرباً من الله، أعطاه الله عز وجل ما لم يعطِ غيره من العلم والأنس والقرب وفتح له من هذه الأرزاق ما لم يفتح لغيره من البشر، فمثل هذا حين يعصي فإن العقوبة تتضاعف في حقه.

يقول ابن رجب: من عصى السلطان على بساطه أعظمُ جرماً ممن عصاه عن بُعد[2].

وكل اصطفاء فيه مشقه،، وهذه قاعدة...

فكلما أُعطي العبد من النعمة كمالها كان المطلوب منه أكثر من المطلوب من غيره، هناك ضريبة لابد أن تُدفع. وكلما زادت الأرزاق والنِعم كانت الضريبة أكبر وأثر المعصية سيظهر عليه أسرع والتأديب له سيكون أقوى من غيره.

وتأمل ما قاله الله عز وجل لنساء النبي I في سورة الأحزاب ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ ﴾ [الأحزاب:٣٠] لأن الله عز وجل أكرمكن بكرامة لم يعطِها لغيركن من النساء وهو أنكن زوجات للنبي I.

- الوقفة الثامنة:

لماذا تدخّل القرآن في هذا الشأن النبوي الأُسري تمثل قصة التحريم بالرغم من أنه أمر طبيعي قد يحصل في كل البيوت، خاصةً البيوت التي فيها ضرائر وكل زوجة تريد أن تكسب زوجها وتستأثر به؟؟

الجواب: كل موطن يكون فيه تأثير على مقام النبوة القرآن سيتدخل فيه، فلو أن هذه القضية، أي قضية التحريم، حين حرّم النبي على نفسه سواء مارية أو العسل مرّت هكذا، ولم ينزل قرآناً، ربما وقع في نفوس بعض الناس أن البيت النبوي القضية فيه قضية نساء!! يُحرّم من أجل هذه، ويحلل من أجل هذه، ويطلب رضا هذه ويطلب رضا الأخرى!!

وهذا أمر لا يليق بالنبي I بحال من الأحوال ومما يزعزع ثقة المسلمين بينهم، ولو تزعزعت ثقتهم ولو بمقدار ذرة لفَسَدَ عليهم دينهم وضاع إيمانهم، فلا بد أن تكون ثقتهم بنبيهم عالية جداً وفي أقصى ذروة الكمال.

---

[1] صحيح مسلم (٩١)

[2] جامع العلوم والحكم

لذلك شُدِّد الخطاب على الزوجتين المتظاهرتين

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(٤)﴾

الله وجنوده في السماء والأرض من الملائكة والصالحين سيكونون مع النبي I وفي نصرته... ما أعظم قدرةُ عند ربه[1].

- الوقفة التاسعة:

﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾

ما زال الله عز وجل يدافع عن نبيه، ومن جملة هذه المدافعة أنه هدد زوجات النبي أنه لو طلقكن سيبدله الله زوجات أخير وأفضل (***مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً***)

- ما السرّ في تفصيل هذه الصفات؟

إنها صفات المرأة الكاملة.. من أرادت الكمال من النساء فلتزِن نفسها على هذه الصفات لتعرف أين وصلت في الكمال!!

- مسلمات: مؤديات للعبادات الظاهرة بعمومها وخاصة أركان الإسلام.
- مؤمنات: الإيمان درجة أعلى من الإسلام وفيه إشارة إلى الصدق الذي قام في قلوبهن، وهذا يقتضي الصدق في الطاعات والأعمال القلبية.

وإذا أراد الله بعبده خيراً أحيا قلبه بهذا الإيمان.. وقد وصفه الله في سورة الحجرات بأنه فضلٌ من الله ونعمة، والفضل هو العطاء الوفير الزائد الذي يغمر العبد. (راجع ملزمة سورة الحجرات).

- قانتات: القنوت هو المداومة على الطاعة، وهذه مرتبة فوق الطاعة.

---

[1] أفياء الوحي- د.عبد الله القاسم

والنبي I كانت هذه سنته المداومة، كان عمله دِيمة وإذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه.. "أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أَدْوَمُها و إن قَلَّ "[١].

وإن أكثر ما يُصلح القلوب هي هذه العبادة المتواترة المتتالية المتتابعة لأن الإنقطاع والتراخي يُضعف الإيمان ويُصيب الإنسان بالفتور، وليس الجسد الذي يفتر فقط بل حتى القلب يفتر ويدخل عليه الكسل، والكسل من أعدى أعداء الإنسان.

○ سُئِل فضيلة الشيخ محمد علي الشنقيطي حفظه الله في لقاء معه: ما أعجب صفة رأيتها في والدك رحمه الله؟

قال: صبره ومداومته على قراءة القرآن. كان إذا صلى الضحى فتح المصحف وأخذ يقرأ فيه إلى آذان الظهر، وكانت هذه عادته كل يوم[٢]!!

تأمل هذه المتابعة الإستمرار على مثل هذه العبادة! بمثل هذا تنصلح القلوب.... اللهم أعِنا على طاعتك

▣ تائبات: كثيرات التوبة وسريعات التوبة..

ونحن أحوج ما نكون لأن نمتلئ بمثل هذه الصفة ونتشبع بها لا سيما أن النبي I أخبر عن النساء وقال: " يا معشرَ النِّساءِ تصدَّقنَ ولو من حُلِيِّكُنَّ فإنِّي رأيتُكنَّ أَكثرَ أَهلِ النَّارِ "[٣].

فالذنوب لها من الله طالباً ولن تزول إلا بالتوبة...

▣ عابدات: متعددات الخير متنوعات العبادة.

إذا نظر الله للمتصدقين رآها معهم وإذا نظر للمصلين رآها معهم وإذا نظر لمجالس العلم رآها معهم وإذا نظر إلى البكائين والمحسنين وأصحاب الخُلق الحسن ومن يسعون في تفريج كربات الناس رآها معهم.. بمعنى أن لها في كل باب سهماً وهذا من فضل الله ورحمته أن جعل أبواب الخير كثيرة ومتنوعة حتى يسهل على الناس الدخول فيها.

▣ سائحات: تأتي على معنيين:

١- قيل بمعنى الصيام: صائمات أي كثيرات الصوم.

---

[١] صحيح الجامع (١٦٣)
[٢] احدى اللقاءات مع الشيخ في قناة المجد عن حياته الخاصة وبره بوالديه.
[٣] الوابل الصيب (٥٤)

٢- وقيل بمعنى مهاجرات.

- ثيبات وأبكاراً:

الثيب: المرأة التي سبق لها الزواج **البكر:** المرأة التي لم يسبق لها الزواج

**** لكن لماذا بدأ الله عز وجل بالثيّب قبل البكر؟؟**

لأن هذه الصفات السابقة التي ذُكرت لو توفرت في المرأة فهي تصبح خير للرجل حتى لو كانت ثيباً ولم تكن بكراً لقول الرسول I: "**فاظفر بذات الدين تربت يداك**"[١].

وقيل أيضاً: حتى يكون هذا جبراً لقلوب زوجات النبي I لأن أكثر زوجاته ثيّبات لم تكن منهن بكراً إلا السيدة عائشة رضي الله عنها.

****** بعد هذا التهديد والوعيد والإنذار لأمهات المؤمنين هل استجبنَ رضي الله عنهن؟؟***

نعم استجبن. يقول ابن السعدي رحمه الله: **فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب بادرن إلى رضا رسول الله I فصرْن أفضل نساء المؤمنين.**

هنا انتهينا من المشكلة التي حصلت في البيت النبوي وكيف كان علاجها.

انتقل الخطاب بعدها إلى بيوت المسلمين حتى تكتمل التربية الأخلاقية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)﴾.

---

[١] صحيح البخاري (٥٠٩٠)

الله عز وجل وجه توجيهاً عاماً ينتفع به كل أحد، كل أب وكل أم وكل مُربي وكل أسرة، ولو تأملت يغلب على هذا الأسلوب جانب التهديد والتخويف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ فيه إشارة إلى أن الذي سيترك حبله على الغارب سيغرق بيته ويضيع منه.

وبنظرة واقعية على بيوت المسلمين التي لا دور فيها للأب، والأم هي المتصرفة، والأولاد والبنات لهم الحرية المطلقة في الدخول والخروج والسفر والسهر والنوم خارج المنزل ومن يقضي الأسبوع والأسبوعين لا يأتي المنزل ولا يعلم ماذا يحدث في المنزل، ولكل غرفة عالمها الخاص،، تعرف مدى الضياع الذي دبّ في بيوت المسلمين!!!

لذلك شبه رسول الله I الزوج بالراعي فقال عليه الصلاة والسلام: " **كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**"[١].. ولا لفظ أدق وأروع من هذا اللفظ الذي اختاره النبي I (الراعي) أي راعي الغنم.

- والغنم من أضعف الحيوانات، مبعثرة مشتتة تحتاج لرعاية وكفكفة ورحمة، فهذا الراعي لا بد أن يبحث لها أولاً عن مكان خصب فيه عشب وماء لتستطيع الأكل والشرب.
- ويوفر لها المكان الآمن ليضمن سلامتها.
- ويجنبها المأسدة والمسبعة حتى لا تهجم عليها الأسود والسباع فتفترسها لأنها من أضعف الحيوانات.
- وأيضاً يداوي مريضها ويعتني بصغارها ويرحمها ويصبر عليها ولو شردت غنمة من القطيع يحملها حملاً ويعيدها مرة أخرى إلى القطيع.

هذا هو الراعي ومثله تماماً مهمة الزوج والزوجة ولكن نقدم الزوج لأن النبي I قدّمه "**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**".

- تأمل الآن هذا الاختراق الذي اخترق بيوتنا وبدون استئذان: الإعلام بقنواته ومحطاته وشبكات الإتصال والإنترنت لهذا الانفتاح الذي اخترق بيوتنا بصورة مروعة ومخيفة يحتاج إلى الكثير من الحيطة والحذر والوقاية والمتابعة.

---

[١] صحيح الجامع (٤٥٦٩)

وتأمل للفظ القرآني العجيب (قوا) جاء بلفظ الوقاية والمعنى: يا أيها الآباء والأمهات المربين والمربيات كونوا على حذر من هؤلاء المزاحمين والمفسدين الذين يعملون على إفساد بيوتكم وسرقة أولادكم وبناتكم، يعملون الليل مع النهار حتى ينزعوا قضية الستر والحشمة يريدون أن ينزعوها منهم نزعاً، يريدون أن نفقد العفاف بدءاً من عفة القلب ثم عفة السمع واللسان وعفة النظر يريدون أن يشعلونها بؤرة نار في بيت كل مسلم بل في قلب كل شاب وكل فتاة مسلمة فينسلخوا من دينهم...

هل رأيتم كيف تاه بنو إسرائيل وكيف دخلوا في التيه؟ هم يريدون هذا، أن ندخل نحن وأسرنا وأولادنا وبناتنا في هذا التِيه والضياع ولا نخرج منه!!

- حل الشقاء في البيوت، فقدنا السعادة لا الآباء سعداء بأبنائهم ولا الأبناء سعداء بآبائهم وأمهاتهم.
- حل الإكتئاب في بيوتنا والحزن والتوترات والضغوط النفسية.
- امتلأت بيوتنا بظاهرة الشقاق والنزاع وكل طرف لا يطيق الآخر.

فكم من فتاة في عمر السابعة عشر والثامنة عشر تريد الإنتحار، ومن لا تريد الانتحار يصبح لديها رغبة ملحة لتسافر وتبتعث، المهم أن تترك البيت!! حتى الأزواج زهدوا في زوجاتهم، زهدوا في الحلال بعد هذا العمر والزوجات أيضاً زهدن في أزواجهن!!!

اختلطت بيوت المسلمين واختلط الأمر فجاء اللفظ القرآني بلفظ الوقاية.

وأمام هذا الصخب والازدحام مازلنا نبحث عن السعادة والحياة الطيبة الهانئة وقد أعطانا الله عز وجل مفاتيحها ﴿من عَمِلَ صَلِحا مِّن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِن فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَوة طَيِّبَة﴾ :

١- حقق الإيمان في نفسك وفي ذاتك.

٢- أقِم بيتك على التقوى وعلى الصلاح وعلى الطاعة فلا تجعل التقوى في بيتك مريضة عليلةٌ غائبة فإذا نظر الله لبيتك لم يجد فيه تقوى.

٣- طهّر بيتك من المعاصي فالذنوب لها عند الله طالباً، الذنوب ليست أمراً هيّناً والنبي I علمنا أن نستعيذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وفي سيد الاستغفار "اللهم إني أعوذ بك من شر ما صنعت" لأن الذنوب لها شؤمٌ وأثرٌ ومغبةٌ على أصحابها وبالتالي يحصلُ الكدر والتنغيص في البيوت. وأكثر الشقاء الذي نعيش فيه ماهو إلا بسبب هذه الذنوب.

*** بعد التهديد والإنذار وصيغة التخويف والحسرات التي أصابت القلوب،، إلى أين ينقلنا القرآن؟؟

يفتح لنا الأبواب، يأتي الرجاء، تأتي الرحمة وتأتي التوبة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ ونحتاج هنا لقلوب تسمع وتنصت.

يريد الله أن يطهرنا.. ويريد أن يصفّينا.. ويريد الله أن يطهر بيوتنا حتى نسلم وتسلم بيوتنا معنا لذلك أتى النداء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا ﴾.

قضية التوبة في الإسلام قضية عجيبة، قضية مذهلة جداً جداً، ولو تتبعنا التوبة من خلال قصص القرآن ومن خلال الآيات التي فيها حدود وعقوبات ثم تأملنا الآيات التي تأتي بعدها لَذُهلنا ولن يسعنا إلا أن نتمتم بيننا وبين انفسنا أيُ ربٍ رحيم هو ربنا!!

إي والله، لكننا نحتاج أن نقرأ مثل هذه الآيات قراءة قلبية صحيحة، ويكفينا أن القرآن أعلنها صريحة ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾.

مثلاً لو تتبعنا التوبة في سورة المائدة وربما منا من يعتقد أنها من السور الشديدة التي لا يوجد فيها آيات رقائق ترقق القلوب فهي سورة تتحدث عن العقود والمواثيق والأحكام! بينما سورة المائدة فيها آيات إذا قرأها قارئ القرآن بقلب انتفع بها أيّما نفع وربما انصلح قلبه بهذه الآيات صلاحاً كبيراً.. دعونا نتأمل بعضها..

- يقول تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فاقطَعُواْ أَيدِيَهُمَا جَزَاءَ بِمَا كَسَبَا نَكَلا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم(٣٨)﴾

الآن الآية تتحدث عن سرقة وكبيرة من الكبائر وعظيمة من العظائم، ذنب يترتب عليه قطع وعقوبة وحد..

ثم ماذا أتى بعد هذه الآية؟

﴿ فَمَن تَابَ مِن بَعدِ ظُلمِهِۦ وَأَصلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُور رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾.

أيضاً في موضع آخر: في الحِرابة والقتل والإفساد في الأرض والبغي والظلم ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) ﴾.

كل هذه العقوبات: صلب وتقطيع ونفي، ثم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣٤) ﴾.

في سورة النساء يقول تعالى ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا (١٦)﴾ أولئك الذين لطخوا أنفسهم بالشذوذ والزنا والعلاقات المحرمة، بالفواحش والإثم، بكل هذا الحرام. ثم ماذا بعدها؟

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١٧) ﴾.

يالله كم يفرح المؤمن بمثل هذه الآيات وهو يقرأها.. كم تفتح هذه الآيات من أبواب الأمل والرجاء والتغيير وحسن الظن بالله وتعين الإنسان على نفسه، وتعين الإنسان على التوبة.. مهما أذنب..

نحن أمام كبائر ومظالم وحقوق وحدود وقطع وصلب، ومع ذلك مازال الله ينادي عباده ويعرض عليهم التوبة ويكررها عليهم (يتوب الله عليكم).. فمن تاب تاب الله عليه.

قال ابن القيم رحمه الله: **لأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها في الدنيا: نهر التوبة النصوح، ونهر الحسنات المستغرقة للوزر، ونهر المصائب العظيمة المكفرة، فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاث فورد يوم القيامة طيّباً طاهراً لم يحتج إلى التطهير"**

أي: أن الله منَّ عليك وحرّك قلبك للتوبة.. وهذه التوبة مثل الشلال**!!**

هل رأيت الشلال كيف ينحدر ويسحب معه كل شيء وينتهي؟؟ كذلك التوبة تمسح كل الماضي.. كل الذنوب.. كل المعاصي تذهب مع التوبة.. إنها أقوى مطهرٌ للذنوب...

للتوبة شروط حتى تكون توبة صحيحة صادقة:

١- تقلع عن الذنب تماماً.

٢- تعزم عزماً أكيداً في نفسك بأنك لن تعود إليه.

٣- الندم بأن يحصل لك اعتصارُ قلبٍ وحسرة،، ليتني لم أفعل.. ليتني لم أرتكب.. ياليت عمري لم يضع وأنا على هذه المعصية......

وكما يُقال (التائبُ كلما مرّ احترقْ) والمعنى كلما مرّ على خاطره ذنبه ومعاصيه وماضيه وزلاته احترق من الداخل وتحسّر، وكلما احترق زاد تكفير الله لذنوبه لأن هذا الاحتراق وهذا الندم، ما هو إلا دليلُ صدقه في توبته وحيائه من ربه.

هذه ثلاثة شروط لو كان الذنب بينك وبين الله، ماذا لو كان بينك وبين البشر وهناك مظالم وتبعات وهناك من يطالب بالحقوق؟؟

يصبح هناك شرطاً رابعاً للتوبة: إن كانت حقوقاً مادية فإنها تُرد لأهلها، وإن كانت حقوقاً معنوية نستغفر لهم وندعو لهم بظهر الغيب ونذكُرهم بالخير لأن النفوس ليست على درجة عالية من الإيمان فتتقبل، فربما لوطُلب السماح منهم لازداد الأمر سوءاً على سوء، فيُكتفى بالاستغفار لهم والدعاء لهم والتصدق عنهم وذكرهم بالخير...

أرزاق التوبة:

كلما كان العبد صادقاً في توبته رُزق بأرزاق التوبة، وأرزاق التوبة عجيبة:

١- فرح اللهُ بالتائب.. الله جل جلاله من فوق سبع سماوات يفرح بهذا التائب ولو لم يكن للتوبة من فضل إلا أن الله يفرح بالتائب لكان هذا يكفي لأن فرحه مُستلزِمٌ لرضاه جل جلاله.. واللهُ إذا رضي عن العبد فهذه كرامة لا مزيد عليها.. ماذا نريد بعد هذا؟

لم يبقَ شيء "عبادي قد رضيت عنكم"[1]،، ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾.

٢- يُبدل الله سيئاته حسنات، والتبديلُ مطلق،، كله سيتبدل.

٣- يرفع الله مقامه ودرجته أكثر من السابق.

٤- من أرزاق التوبة أيضاً أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب.

---

[1]

سأل شاب فضيلة الشيخ محمد المختار الشنقيطي فقال: يا شيخ أنا شاب سافرت للخارج وزنيت وعصيت وفعلت كل شيء ولما عدتُ وجدت أني مصابٌ بالإيدز لكن في مرحلة متقدمة جداً وعلى وشك الهلاك والموت. ذهبت للحرم ومكثت لمدة ستة أشهر واعتكفت فيه ولم أخرج منه، أصلي واستغفر وأتوب وأنطرح بين يدي الله عز وجل وأتضرع لله. وبعد ستة أشهر كاملة وأنا في الحرم ذهبت للمستشفى مباشرة وعملت تحاليل وظهرت النتيجة فقالوا: أصلاً لا يوجد أي أثر للمرض في جسدك، فهل أنا صادق في توبتي؟ هل الله يقبلني؟!

والله الذي لا إله إلا هو لم يستطع الشيخ الكلام، جلس يكبر ويكبر ثم يسكت ثم يعود يكبر ويكبر وبعد التكبير بشّره وهنّاه وقال: والله إننا ما عرفنا الله حق معرفته، ولا عظمناه حق تعظيمه".

هذا أذنب وما نظر الله إلى سابقته ولا نظر الله إلى ماضيه ولا كم عصى ولا كيف عصى، بمجرد أن تاب تولاهُ الله بلطفه وتولاه الله برحمته وشفاه الله من أمراضه.

ما أكرم الله!

وما أحلم الله!

ما أرأف الله بعباده!

وما أكثر خير الله على عباده!

ليس أحد أصبر على أذى من الله، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ولا أحد أرحم بنا من الله، فما زال يفتح أبواب التوبة لعباده ويستحب عباده وينادي عليهم ﴿ يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُواْ الى الله جميعا﴾.

وتأمل الرزق الخاص الذي سيُرزقه هذا التائب كما ورد في سورة التحريم ﴿ يَوْمَ لا يُخْزِي اللّـَهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) ﴾.

التوبة نور.. والتائب له نور.. وتأمل كيف قدّم النور على السعي بينما في سورة الحديد قدّم السعي على النور.. لماذا؟

حتى يُعرف أن للتائب نور هائل، وكلما صدق في توبته وعظمت كلما عظم نور التائب ﴿ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ سواء كان نورهم في الدنيا أو النور الذي سيُرزقون به في الآخرة ويفرحون به..

هناك يوم أن توزع الأنوار، منّا من يُعطى نوره كالجبل بين يديه، ومنّا من يُعطى نوره كالنخلة، ومنّا من يُعطى نوره كالإبهام، وهذا النور على قدر العمل وعلى رأس العمل: (التوبة) بقدر الندم والاحتراق الذي كنت تحترقه في

الدنيا وبقدر الحسرة والاعتصار والندم والبكاء، على قدر هذا كله سيأتي النور، سيأتي النور يوم القيامة ويفرح هذا العبد المؤمن بنوره ﴿ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾..

أسأل الله أن يكتب لنا أوفر الحظ والنصيب من هذا النور وان يمنّ علينا بتوبة صادقة نصوح

أتت الآية التي بعدها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ﴾.

يا ترى لماذا تأتي هذه الآية في سورة تتكلم عن إصلاح أسرة وإصلاح بيت وإصلاح مجتمع وأخلاقيات وسلوك؟

هذا فيه إشارة إلى أنه من يسعى لإفساد البيوت والمجتمعات هم هؤلاء الكفار والمنافقين، وخطر المنافقين أعظم لأن الكفار عداوتهم معلنة صريحة لكن المنافقين مشكلتهم بأنهم مندسين بمسمى مسلمين..

يُصلون معنا ويدخلون المساجد معنا وفي كل شيء معنا بمسمى مسلمين لكن (هم العدو فاحذرهم)..

لماذا؟؟

لأنهم يروجون أفكارهم وضلالهم وإفسادهم تحت مسمى الإصلاح والتقدم والحضارة والتطور والتنوير والحقوق وخاصة حقوق المرأة والتركيز على المرأة قضايا المرأة وابتعاث المرأة، يريدون انتزاعها من أمومتها وأنوثتها وحيائها وبيئتها نزعاً...

القرآن أعطانا معياراً قرآنياً دقيقاً لمن أرادوا إصلاح بيوتهم وأُسرهم أن لا يغترّوا بهؤلاء المنافقين ولا بشعاراتهم ولا بكلامهم المنمّق والمزين والمزخرف والذي من خلاله يدسون السم في العسل بل أكثر من يفسد البيوت هؤلاء الكفار والمنافقين، والمنافقون على وجه الخصوص، وصدق ربنا عز وجل إذ يقول (هم العدو فاحذرهم).

ثم خُتمت السورة بمثلين ضربهما الله: المثل الأول للذين كفروا والمثل الثاني للذين آمنوا..

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) ﴾

► المثل الأول ضربه الله فيه ترهيب لمن؟؟ للزوجتين ولزوجات النبي I عموماً بأن قربكم وكونكم زوجات للنبي I لن ينجيكم هذا من النار

هذا مثال لامرأة نوح ولوط، نوح من أولي العزم من الرسل ولكن كلاهما قيل لهما ﴿ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾.

(فخانتاهما) لا يأتي لذهنك أنها خيانة في العرض أبداً، فجميع نساء الأنبياء معصومات عن الفاحشة لحرمة الأنبياء وعصمة الأنبياء فهن معصومات، فما هي إذاً الخيانة التي وردت في الآية؟

الخيانة المقصودة هنا هي خيانة العقيدة والخيانة في الدين.. فامرأة نوح كانت تمشي بين الناس وتقول عنه مجنون.. وامرأة لوط كانت تدل الناس على ضيوفه.

لم تتفقا معهما على التوحيد والإيمان، فلذلك فيه ترهيب لزوجات النبي I أن قربكم وكونكم زوجات للنبي لن ينجيكم من النار.

- المثل الثاني ضربه الله لامرأتين كَمُلَتا. يقول النبي I: " كَمُل من الرجال كثيرٌ ولم يكمُل من النساء إلا ثلاثٌ مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفضلُ عائشة على النساء كفضلِ الثريد على سائر الطعام"[1].

** لماذا ضرب الله هذا المثل؟

يقول مقاتل: يقول الله سبحانه وتعالى لعائشة وحفصة أن لا تكونا بمنزلة امرأة نوح وامرأة لوط في المعصية وأن يكونا بمنزلة امرأة فرعون ومريم بنت عمران، فالله يحقق وعيده ولا يمنعه من ذلك أنها زوجة نبي.

أيضاً هذا المثل فيه لفتة إلى أن كل من أطاعت ربها وحفظت دينها وعفّت نفسها وعصمت جوارحها عن الحرام فإن الله سيعوضها خيراً وسيكرمها بأعظم كرم في الدنيا والآخرة كما أكرم آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكرمني وإياكم بأعظم كرم وأعظم تعويض في الدنيا والآخرة

وأن يصلح بيوتنا وأولادنا وبناتنا وأزواجنا وجميع بيوت المسلمين

وان يجعلنا وذرارينا من أهل طاعته وأهل ولايته

اللهم لا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين

أسأل الله أن يدبر أمورنا بأحسن تدبير وأن يعيذنا من شرور أنفسنا وأن يأخذ بنواصينا إليه أخذ الكرام عليه

اللهم آمين

---

[1] البداية والنهاية (٣/١٢٧)

تم بحمد الله